المقومات الفكرية للعلمانية

مسلم ناسوتيون

Abstract

Nowadays, secular life has greatly influenced modern society. It is ordinary if secular life has swept out of Western society because, indeed, secularism was born there with the background of Christianity. However, it is different if secular life also influences Muslim societies, because it contradictory to Islamic teachings. The widespread of secularism in Muslim societies is the result of the propaganda of secularists. Even, they made a kind of academic fraud by using the Arabic word *'ilmaniyyah* to legalize their thought. This article is trying to reveal the term of secularism especially in Arabic by tracing its original meaning in Greek. The writer believes that the translation of the word secularism as *'ilmaniyyah* is misleading. This article is also trying to explore the early history of secularism, and various backgrounds of thoughts of that time.

Abstrak

Kehidupan sekuler sudah sedemikian rupa mewarnai masyarakat modern dewasa ini. Kalau kondisi seperti ini melanda masyarakat Barat adalah suatu hal yang wajar karena pemikiran sekularisme memang muncul dari sana dengan Kristen sebagai agama yang berperan melatarbelakangi munculnya pemikiran tersebut. Persoalannya menjadi lain ketika kehidupan sekuler juga melanda masyarakat muslim yang jelas-jelas bertentangan dengan ajaran Islam itu sendiri. Hal ini tidak terlepas dari propaganda yang begitu gencar yang dilakukan oleh kaum sekuler, bahkan ke tingkat pembohongan

akademik seperti pemakaian istilah sekuler dalam bahasa Arab dengan *'ilmaniyah* dimana diambil dari kata *'ilm*. Makalah ini berusaha mengungkap istilah sekularisme khususnya dalam bahasa arab, sejarah kemunculannya dan berbagai landasan pemikiran sekularisme itu sendiri.

معنى العلمانيـة

العلمانية هي ترجمـــة عربيـــة لكلمـــة إنكليزيـــة secularism [١] وكلمـــة "secularism" مشـــتقة مـــن "Secular". وهـــي في الأصـــل "saeculum"وهي كلمة لاتينية معناهـــا "عصـــر" أو "الوقـــت الحـــاضر" أو "قرن واحد". وكلمة "saecularis" باللاتينية تعنى كـــون الشـــيء متصـــلا بزمان معين. وكلمة "secular" معناها مـــا يتعلـــق بـــالوقت الحـــاضر, [٢] أي بالحياة الدنيا أو دنيـــوي.[٣]

والترجمـــة الشـــائعة لكلمـــة secularism كمـــا ذكرنـــا هـــي "العلمانية". وهـــذه ترجمـــة مضللـــة[٤] وتنســـب علـــى غـــير قيـــاس إلى "العلم"[٥] كأنها توحي بأن لها صلة بالعلم, بينما الواقـــع أنـــه لا صلـــة لهـــا

---

[١] Hassan S. Karim, *Almanar English – Arabic Dictionary*, New Impression Librairie, du Liban, Beirut, 1981, p. 622

[٢] *The Oxford English Dictionary*, Vol. IX, 1970, p. 365. & *Webster's Third, New International Dictionary*, vol. III, Merriam, co. 1976, p. 2053

[٣] *Webster's ColligiateThesaurun*, First Edition, Merriam Company, USA, 1976, p. 711

[٤] انظر: *مذاهب فكرية معاصرة*: محمد قطب, الطبعة الأولى, دار الشروق, بيروت, ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م, ص ٤٤٥

[٥] انظر: *العلمانية الإسلام*, محمد البهي, دار الطبعة المحمدية, القاهرة (بدون سنة) ص ٤

"العلم"[٥] كأنها توحي بأن لها صلة بالعلم, بينما الواقع أنه لا صلة لها بالعلم على الإطلاق[٦]. يقول أنوار الجندي: "إن اشتقاق العلمانية من العلم خطأ محض, بل هو تمويه خطير وزيف كبير."[٧] لأنه يعطينا تصورا بأن العلمانية يقصد بها رفع شعار العلم, فبقبلها المسلمون, لأنها لا تعارض بينها وبين الإسلام, إذ لا تعارض بين الإسلام والعلم.

والترجمة الصحيحة لكلمة "secularism" هي "اللادينية" أو "الدنيوية" لا بمعنى ما يقابل الأخروية فحسب, بل بمعنى أخص, هو ما لا صلة له بالدين, أو ما كانت علاقته بالدين علاقة تضاد.[٨]

ومن الواقع المؤسف أن كلمة "العلمانية" صارت اصطلاحا متداولا عند الكتاب وهى ترجمة خاطئة ومضللة, كما سبق أن بينا.

كما أن المفهوم الشائع عندنا أن العلمانية هي: فصل الدين عن الدولة.

وهذا المفهوم العام غير دقيق, لأنه لا يدل على المعنى الكامل للكلمة, بل حقيقة معناها أشمل بكثير من قضية الدولة. يقول ألن

---

[٥] انظر: *العلمانية الإسلام*, محمد البهي, دار الطبعة المحمدية, القاهرة (بدون سنة) ص ٤

[٦] *مذاهب فكرية معاصرة*, محمد قطب، ٤٤٥.

[٧] *سقوط العلمانية*, أنوار الجندي, الطبعة الأولى, دار الكتاب اللبناني, بيروت ١٣٩٣هـ ـ ١٩٧٣م, ص ٤٢

[٨] *العلمانية*, سفر عبد الرحمن الحوالي , الطبعة الأولى, دار مكة للطباعة والنشر التوزيع, مكة المكرمة, ١٤٥٢هـ ـ ١٩٨٢م, ص ٢٣

ريشردسون (Alan Richardson) : "في اللغة الإنجليزية المستعملة في الوقت الحاضر فإن لفظ "secularism" لابد أن يقصد به ميل المجتمع إلى إقصاء الرب والدين عن كل شيء, لاشتغالهم بأمور دنيوية "secular" وتسابقهم مع الآخرين في الحصول مع متاع الدنيا وتطوراتها, وذلك لا ينتهي, وهم غارقون فيها, وطاقاتهم مستنفذة من أجلها, حتى أنه ليس لديهم وقت يجلسون فيه ويفكرون في الأمور الأخروية"[٩]. وتقول دائرة المعارف البريطانية عن معنى كلمة "secularism" : هي حركة اجتماعية تهدف إلى صرف الناس عن الاهتمام بالآخرة إلى الاهتمام بالحياة الدنيا وحدها"[١٠].

فيتبين لنا أن المقصود الحقيقي لكلمة "العلمانية" هو: "إقامة الحياة على غير الدين, سواء بالنسبة للأمة أو للفرد"[١١]. يعني أبعاد الدين ومعناه عن واقع الحياة كل مجالاتها سياسية كانت أو اقتصادية أو تعليمية أو اجتماعية أو فكرية أو فنية أو علمية ... الخ. ولذلك فإن العلمانية مخطط كامل يستهدف اقتصاد الدين عن الحياة ولا ريب أنها تيار خطير معاد للدين. يقول محمد قطب: "وأولى الترجمات بها في العربية أن

---

[٩] M. Rasyidi, *Koreksi terhadap Drs. Nurcholish Madjid, tentang Sekularisasi*, Cetakan kedua, Bulan Bintang, Jakarta, 1977, p. 17
(*تصحيح على نور خلص ماجد حول العلمانية*, محمد راشدي, الطبعة الثانية, بولان بنتاج, جاكرتا, ١٩٧٧م, ص ١٧)

[١٠] *Encyclopedia Britanica*, Vol. IX, p. 19

[١١] *العلمانية* : سفر عبد الرحمن, ص ٢٣

نسميها :"اللادينية" بصرف النظر عن الدعوى "العلمانيين" من العرب بأن العلمانية" لا تعادى الدين أنها تبعده فقط عن مجالات الحياة الواقعية : السياسية والاقتصادية والاجتماعية و الفكرية ... الخ, ولكنها تترك للناس حرية "التدين" بالمعنى الفردي الاعتيادي على أن يظل هذا التدين مزاجا شخصيا لا دخل له بأمور الحياة العلمية."[١٢]

ومن هنا نحس خبث ترجمة "secularis" إلى "العلمانية" ونشعر بشناعة الجرم الذي ارتكبه الذين استعملوا هذه الترجمة أول أمرها دون الكشف عن معناها الحقيقي. لأن العلمانية لم تكن فقط دعوة علمية خالعة لوجه الحق, ولكنها تستهدف إخراج المتدينين عن دينهم, [١٣] بينما اقترن بها في أذهان الناس معنى "التقدم" لأن كل تنظيم للشئون السياسية وتخطيط "للمناهج" الاقتصادية والاجتماعية على أساس الدين ينظر إليه على أنه حركة "رجعية" أو نظرية مثالية بعيدة عن مجال التطبيق العلمي.[١٤]

---

[١٢] *مذاهب فكرية معاصرة*, محمد قطب, ٤٤٥

[١٣] ولذلك نرجو من المجمع اللغوي التابع لجامعة الدولة العربية خاصة وللمؤلفين المسلمين عامة, أن يصححوا هذه الترجمة الخاطئة المضللة ويستبدلوا بها الترجمة الصحيحة وهي "اللادينية" حتى تزول عن الأمة غشاوة المخادعة فهناك فرق كبير — عند الناس — بين أن تقول "دولة علمانية" و "دولة لادينية" مع أنها مطابقان تماما.

[١٤] *منهاج الإسلام في الحكم*, محمد أسد, نقلة إلى العربية مصور محمد ماضي, الطبعة الثالثة، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٦٧م، ص ٢١.

والجديد بالذكران الديـــن "في المفـــهوم الأوروبي متمثـــل في رجـــال الدين والكنيسة. فالعلمانيـــة وليـــدة تفكـــير الغـــربي, حيـــث وجدنـــا في مجتمعهم الدولة والكنيســـة, والمـــدني والديـــني, فـــهناك الســـلطة الكنســـية والسلطة المدنينة أو الدنيويـــــة , كمـــا نجـــد المدرســـة الدينيـــة والمدرســـة المدنيـــة.[١٥]

ومن ناحية أخرى فـــإن الـــدول والإفـــراد يختلـــف موقعـــهم مـــن الدين, فبعضهم يسمحون بالدين كما هـــو الحـــال في الدولـــة الديموقراطيـــة اللبرالية, فإنها لا تعادى الدين صراحة وبعضـــــها كـــالدول الشـــيوعية تمنـــع وجود الدين وتحاربـــــه في جميـــع المجـــالات. وتســـمى الأولى ب"العلمانيـــة المعتدلة" والثانية ب"العلمانية المتطرفة" ولكن حقيقتـــــها واحـــدة.[١٦]

وبهذا يتضح لنا أن استعمال لفـــظ "قصـــد بـــه ألا يصـــدم مشـــاعر المتدينين وأحاسيسهم بينمـــا يبقـــى هدفـــها الحقيقـــي مختفيـــا ورأي ذلـــك اللفـــظ.

وقـــد ظـــهر الاصطـــلاح "secularis" في عـــام ١٢٧٥هـــــــ (١٨٥١م) في البيـــان الـــذي أعلنـــه ج.س.هوليـــــوك G.S. Holyoake تعبيرا عن فلسفة الأخلاقية كان هدفها شرخ نظـــم الحيـــاة بـــدون اعتقـــاد أو إيمان بالله, أو بالكتاب المقدس, أو بـــاليوم الأخـــر.

---

[١٥] أنظر: *العلمانية الإسلام*, محمد البـــــهي, ص ٤

[١٦] *سقوط العلمانية* : أنور الجنـــــدي, ص ٧

١٣٨٢ (١٨٩٠ و١٩٨٥ م) رجل ملحد اسمه "شرلى بردلاف " (Charles Bradlauph).[١٧]

وفي القرن الماضي كان معنى لفظ "secular" يتحدد في أنه: ليس للكنيسة حق في أن تتدخل في الشئون السياسية أو الاقتصادية في الدولة. ثم تطور هذا المعنى في هذا القرن إلى تحديد دور الكنيسة في الأمور الكنيسة فقط, ولا يجوز لها أن تتدخل في أمور الأخرى.[١٨]

وهكذا يتضح لنا معنى العلمانية, فهي فكرة غربية تهدف إلى اقتصاد الدين عن كل مجالات الحياة, وهي من ثم متعارضة مع الإسلام. فكل شيء لا يقوم على أساس من الدين فهو مضاد للدين في الحقيقة وليس هناك في الإسلام حالة متوسطة بين الدينية واللادينية.

المقومات الأساسية للفكرة العلمانية

بعد أن انتهينا من شرح معنى لفظ "العلمانية" وحقيقتها نتكلم عن المقومات الأساسية لهذه الفكرة الضالة. وسنتناولها إجمالا نظرا لأن العلمانية تسربت إلى أمور كثير ة من شئون الحياة. وتلك المقومات هي: أولا: إبعاد الخالق والدين عن الحياة.

وقد نشغل بال العلمانية بموضوع الإنسان وخاصة حول أصل النوع البشرى فوصلت آراؤهم فيه إلى "أن الإنسان انحدر من أسلاف

---

[١٧] *Koreksi*, M. Rasyidi, p. 17

[١٨] نفس المرجع, ص ١٦

أدنى منه مرتبة, شأنه في هذا شأن سائر الثدييات, وانه والقردة ومنها الشمبانزي والأورانج أو تان والغوريلا كان لها جميعا يوما ماجد مشترك ... , ولقد صيغ الإنسان فصار إلى هذه الحالة التي نراه عليها اليوم من القوى والمواهب والآمال خلال ملايين من أفراده مرت في الحياة تباعا ..."[١٩] ولذلك وضع العلمانيون الإنسان في صف واحد مع القردة أو الحيوانات الأخرى, التي بدأت حياتها "في مياه ضحلة تغمرهم أشعة الشمس, وربما كان ذلك في برك ومستنقعات تمتد على شواطئ البحار الأولى, ولعلها اتخذت في ابتدائها شكل مادة مخاطية Slime أو أي شيء مما هو دون الحياة, وتدرجت في بطئ وبهيئة غير محسوسة حتى اتخذت لنفسها الصافات المميزة للحياة."[٢٠] فهذا يعنى أنا خلق الحياة لا تتدخل فيه أي قوة خارجية. فالحياة نابعة من المادة نفسها, وهذا معارض لما أعتقده أصحاب الديانات بأسرها, لأن الحياة مخلوقة من خلق خالق.

ومن هذا المنطق ذهب العلماء العلمانيون مثل داروين ومن وافقه إلى أنه لم يتدخل أي عمل خارجي في خلق الإنسان, لأن الأحياء

---

[١٩] *معالم تاريخ الإنسانية* : هـ. ج. ولز, ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد, الطبعة الثالثة, مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر, القاهرة, ١٩٦٧م, المجلد الأول, ص ٦٢.

[٢٠] نفس المراجع, ٢٣/١.

الأرضية كلها قد نشأت من أصل واحد. فالأحياء البرمائية نشأت من الأحياء المائية, ومن الأحياء البرية نشأ الإنسان.[٢١]

إذن, ليس هناك فرق بين الإنسان والقردة أو الحيوانات الأخرى, فكلها من أصل واحد. وقد رأى داروين أنه لا يفصل بين أصل الإنسان والقردة سوى خلقة واحدة.[٢٢]

وبالرغم من أن هذه النظرية الداروينية قد رفضها أصحاب الديانات والمفكرون وتحول عنها بعض أتباع داروين أنفسهم, فقد استعملها أصحاب النوايا الخبيثة ليصلوا إلى هدفهم وهو الحط من قيمة الإنسان وإدخاله في سيطرتهم. فسرعان ما ألحقوا الإنسان بالحيوان وقالوا أنه لا يمتاز عن الحيوانات الأخرى إلا برقي نسبي. ولذلك يجب على الإنسان أن يراعي جوانبه الحيوانية ويصارع من أجل بقائها.وإن مسئوليته محصورة في هذه الحدود, أما جانبه النفسي والمعنوي وحاجته إلى الإيمان بالخالق, وما يترتب على ذلك من أن له رسالة في هذه الحياة, وأنه مسئول أمام خالقه فذلك أمر قد أراحتهم منه النظرية فضلا عن أن يكون هناك إله أو قصد وتدبير وراء هذا الخلق. يقول المودودي:

"فقد زعموا أن الإنسان إن هو إلا نوع من البهيمة قد وجد على ظهر الأرض, فما هو بمنقاد لأحد ولا متبع له ولا مسئول أمامه

---

[٢١] انظر: *الإسلام وبناء المجتمع* : أحمد محمد العسال, الطبعة الأولى, دار القلم الكويت, ١٣٥٨هـ/١٩٨٥م, ص ٢٠

[٢٢] المراجع نفسه

وهو لا يتلقى الهداية من فوقه, فعليه أن يتلقى الهداية بنفسه, وإن كان لهذه الهداية من مصدر, فإنما هو القوانين الطبيعية أو معلومات الحياة البهيمة أو تجارب التاريخ الإنساني الفارط."[٢٣]

وبذلك أبعد العلمانيون الخالق (الإله) عن مسرح الحياة الإنسانية كما عبر عن ذلك نتشه (Nitzsche) وهو من العلمانيين المتطرفين حيث يقول: "إلى أين ذهب الإله؟" (وذلك بعد أن طلب الإله في تجمع من الناس و لم يجده فيه) وأنا سأبينه لكم, أننا قد قتلناه – أنتم وأنا, وكلنا قاتلون... أليس يوقد المصباح في الصباح؟ ألم نسمع أن حفار المقابر دفنوا الإله؟ ... الإله قد مات! الإله مات إلى الأبد."[٢٤] وهكذا رفض صراحة القول بوجود الإله أو الخالق.

وبعد أن أكتشف العلماء أنواعا من العلوم عن طريق التفكير والتجربة منذ عصر النهضة الأوروبية بدأ إعجابهم بقدرة العقل الإنساني في إبداع الأشياء وتطويرها, فاعتقدوا "أن الكون يدور بالطريقة التي يعمل بها عقل الإنسان حين يفكر منطقيا وموضوعا, وأن الإنسان على هذا الأساس يفهم أخيرا عن طريق التجربة كيفية العمل

---

[٢٣] *واقع المسلمين وسبيل النهوض بهم*: أبو الأعلى المودودي, بقله إلى العربية محمد عاصم الحداد (الطبعة والسنة غير موجودة), ص. ٣٥

[٢٤] *Panji Masyarakat*, No. 416, 1983, p. 29

والمحافظة على الحياة التي سترشدهم إلى كل شيء... [٢٥], يعني وضعوا العقل في مكان الخالق الجبار المدبر, ويقولون: "إن كل التجارب تدل على الإنسان هوا القوة المسيطرة على هذه الأرض, فالإنسان وحده الذي يوجه أفكاره ويسيطر عليها, وهو حرفي توجيهه من كل قيد سماوي"[٢٦], ففصلوا العقل عن قيود الدين, واستخدموا العقل في كل شيء في تحديد ميزان الخير والشر, وفي معرفة كل أمور الحياة.

إن الإنسان من الظواهر الطبيعية, وإنه في الحقيقة كائن اجتماعي, ولا يستطيع أن يعيش بدون مجتمع. هكذا رأى العلمانيون الماديون, لأنهم قالوا: "إن كل ما يفكر به الإنسان أو يرغب فيه أو يريده, يعد في النهاية نتيجة لاحتياجاته الاقتصادية الناجمة عن طرائق الإنتاج والعلاقات الاجتماعية المترتبة على هذا الإنتاج. وهذه الطرائق وهذه العلاقات تتنوع بدون توقف. وهكذا يمر المجتمع عبر قانون التقدم الديالكتيكي الذي يعبر نفسه بالصراع الاجتماعي للطبقات. فمحتوى الذات الإنسانية برمته يفرضه المجتمع وتناله التحولات عن طريق التقدم

---

[٢٥] *نشأة الفكر الحديث*: كرين برنتون, ترجمة عبد الرحمن مراد, مطبعة المفيد الجديد, دمشق, بدون سنة, ص ١٠٢

[٢٦] *الإسلام والعلمانية*: محمدنقيب العطاس, ترجمة كارسيجو بويوسوارنو, الطبعة الأولى, مطبعة فوستكا, بندونج. ١٩٨٠ م, ص ٢٠

(*Islam dan Sekularisasi*, Muhammad Naqib al-Attas, terj. Karsijo Joyosuwarno, cet. I, Pustaka, Bandung, 1981, hlm. 20.)

الاقتصادي."[٢٧] ووفقا لهذا المبدأ يقرر سارتر ما يلي: "إن الإنسان هو موجود تاريخي, وإن الإنسان لا يوجد بالنسبة إلى الإنسان اللهم إلا في ظروف اجتماعية معينة, وبالتالي فإن كل علاقة بشرية إنما هي علاقة تاريخية"[٢٨], يعني أن كل قيم الحياة راجعة إلى الإنسان نفسه أو مجتمعه, فضميره أو عقله هو الذي يميز الخير والشر, وينظم قانون الحياة, وأما الدين أو الإله فلا يجوز له أن لتدخل في تلك الأمور, كما هو واضح في رأي برتراندرسل الذي يقول: "أن للإنسان إرادة حرة تدفعه إلى أن يقيم لنفسه في الحياة مثلا عليا, يطمح بها إلى حياة خيرة تسير على هدى المعرفة والمحبة الإنسانية. ومن شأن حرية الاختيار هذه أن تغني الإنسان عن البحث عن نظريات أخلاقية لا طائل وراءها"[٢٩] فهو يرى أن الأخلاقيات تصورات خرافية. ويقصد بالأخلاقيات "الدين" وهذا المعنى ظاهر حين قال: "إن الدين لا يقوم إلا على عوامل الترهيب والتلويح بالعقاب, وبالتالي فإن الدين يشكل ضربا من ضروب الشر التي تملأ هذا العالم, وهذا هو السبب في أننا نجد أن أولئك الذين لم

---

[٢٧] *تاريخ الفلسفة المعاصرة في أوروبا* : بوجينيسكي, نقله إلى العربية محمد عبد الكريم الوافي, الطبعة الأولى, مؤسسة الفرجاني, طرابلس, ليبيا (بدون سنة), ص ١٢٥.

[٢٨] *دراسات في الفلسفة المعاصرة* , زكريا إبراهيم, الطبعة الأولى, مطبعة دار مصر للطباعة القاهرة, ١٩٨٦م, ص ٥١٠ .

[٢٩] *تاريخ الفلسفة المعاصرة في أوروبا* , ص ١٠٢.

يبلغوا بعد درجة كافية من النضج الأخلاقي والعقلي هم وحدهم الذين مازالوا يتمسكون بالمعايير الإنسانية الخيرة التي تسود عالمنا الحديث."[٣٠]

وقد سلك سان سيمون نهجا أشد منه تنفيرا من الدين. فقد قال: "إن الأديان كانت مظهرا شعيبا للعلوم فيما مضى. ولهذا وجب أن تنقرض الأديان طالما كان العلم الذي تقوم على أساسه علما متأخرا في مستواه عن علوم العصر الحديث...وأن الدين الذي يتوقف مع الإنسانية في تقدمها يجب أن يكون دين العلم أو دين نيوتن حيث يحل فيه العلماء الرهبان والكهنة.[٣١]

وبهذا يتضح لنا أن العلمانيين نبذوا"الخالق" أو "الدين" عن مسرح الحياة, واستبدلوا به "العقل" أو العلم" أو غيرهما من النزعات الإنسانية, كما صور ذلك رأى توماس هوبز عن السياسة والدولة. فالدولة عنده هي وحدها التي تعين الحق والباطل وتزن الخير والشر. ومن الدولة تصدر نظم الحياة. يقول هوبز: "لا دين إلا م ترضاه الحكومة, ولا حقيقة إلا ما ينادي به السلطان, وليست تقوم قيم الأعمال إلا بشيء واحد هو قانون الدولة, إن الدين والأخلاق هما من صنع الدولة وأنشأها."[٣٢] فهو يرى أن السلطان يعني الدولة هي مصدر

---

[٣٠] *تاريخ الفلسفة المعاصرة في أوروبا*, ص ١٠٢.

[٣١] *سان سيمون*: طلعت عيسى, دار المعارف القاهرة, ١٩٨٥م, ص ٧١.

[٣٢] *قصة الفلسفة الحديثة*: احمد أمين وزكي نجيب محمود, (الجزء الأول), الطبعة الخامسة, مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر, القاهرة, ١٩٨٦م, ص ٦٤.

كل شيء, وهي مرجع كل نظم الحياة, أما الدين أو الإله فذلك أبعد ما يقلل!!

ثم ظن العلمانيون أنه بالذكاء البشري تحل كل المشاكل, سياسية وأخلاقية أو غيرها وكما تحمل في العلوم الطبيعي.[٣٣] وليس هناك مجال للإيمان بوجود الله أو بخلود النفس, أو بأمور تتعلق بالآخرة. فإن هذه كلها أمور خرافية يستحيل قبولها, وأن الدين ليس إلا فكرة الإصابة باللعنات, أو فكرة تجنب أماكن خاصة وأشخاص معينين, أو شعور بالشئون المحيطة بالأماكن والأشياء. ومن هنا بدأ الشعور بالمحرمات أو المقدسات التي هي من أسس فكرة الدين.[٣٤]

ومن العلمانيين من يرى أن الدين يرجع وجوده إلى دافع اقتصادي منذ بداية التاريخ البشري, أي حين كان الناس في بداية الزراعة وتتعلق حياتهم بشئون البذر, وظهرت في تلك المرحلة فكرة "الكهنة" أو "العشاء المقدس" أو "القربان" وما أشبه ذلك. ومن هذه الأشياء وخاصة من تقاليد التضحية في أوان البذر, ترعرع في حياة الناس شيء ما سمي فيما بعد الدين.[٣٥] فالحقيقة عند العلمانيين لا تصدر إلا عن الأشياء التي نحسها تحت مدركاتنا الظاهرية, أو شيء يمكن قياسه أو وزنه أو كيله. وكل شيء خارج عن هذه الدائرة ليس له حقيقة ولا

---

[٣٣] *منشأ الفكر الحديث*, ص ١٠٤.

[٣٤] انظر: *تعاليم تاريخ الإنسانية* ج ١, ص ١١٨.

[٣٥] انظر: *نفس المرجع*, ج ١, ص ١٢٣.

اعتبار. ومن ثم نرى اتباع ماركس يعتبرون الدين نتيجة الخوف, "إذ أن بني البشر بكل ما يمكن فيهم من الضعف, حين وجدوا أنفسهم وجها لوجه أمام جبروت الطبيعة ثم أمام المستغلين, اتجهوا إلى تأليههم ... وليس- ذلك - إلا تفسيرا خاطئا للظواهر الاجتماعية, وبقية من بقايا النظم الاستغلالية البالية, ولونا من الخداع صنعه بعض الناس ليتعبدوا به كل الناس, فهو عندهم مظهر جهل ووسيلة الاستغلال وحيلة مخادع, ومن واجب الشيوعيين أن ينبذوه و يتحللوا من قيوده ويتبرءوا من كل أثلوه.[٣٦]

وبذلك تم إلحاق الناس بسائر الحيوانات في نشأتهم وتطورهم, لأن القول يطور الإنسان من المادة الحية المائية يبطل القول بوجود الخالق والقول الذي يميز الإنسان عن سائر الحيوانات.

كما تم بذلك سلخ الناس عن دينهم, لأن تسلسلهم من أطوارهم الأولى إلى أن صاروا أناسا ومجتمعا ودولة لا يحتاج إلى ما يسمى بـ"الوحي" أو "الرسول" أو "الكتاب المنزل.

ثانيا: عدم اللجوء إلى التعليلات الغيبية في البحث العلمي

يرى العلمانيون أن العلم والدين نقيضان لا يجتمعان. وأن مفهوم العلم عندهم لا يعدو حدود الطبيعة, فقالوا: "أن العلم هو

---

[٣٦] *الإسلام والحضارة الإنسانية*: محمد عبد المنعم خفاجي, الطبعة الأولى, دار الكتاب اللبناني, بيروت, ١٣٩٣/١٩٧٣, ص ٦١.

مجموعة فروض, تحولت بالتجربة إلى قوانين قابلة للتغيير الدائم, فليس في العلم شيء ثابت وهو مجموعة محاولة لتعليل الظواهر بعلل مادية غير إرادة الله"[٣٧], فليس لله قدرة ولا إرادة في وجود شيء.

ويقول وندل: " العلم سواء استعان بالآلات أم لم يستعن عماده ما لا يلاحظه الإنسان ويحسه من الكائنات, وما تهديه إليه المعامل الكيمائية والتجارب والآلات التي تمكنه من انتزاع غوامض أسرار الطبيعة من أماكنها العميقة."[٣٨] فمصدر العلم عنده يتحدد في الحواس أو معمل التجارب. وليس هناك مصدر أخر للحصول عليه, وليس هناك ما يسمى بـ " الوحي" كما قال جون دوي: "والأغلب أن المفكرين الذين تأثروا تأثرا عميقا بالعلم الحديث, توقفوا عن الاعتقاد في الوحي الإلهي باعتبار أنه السلطة القصوى, وانضووا تحت لواء العقل الطبيعي بدل من ذلك." [٣٩] فصرح العلمانيون بأن العقل هو المرجع لكل شيء وأن العلم الذي كان حصيله العقل والتجارب هو المنهج الذي يجب أن يخضع له كل الكاملين في مجال العلم.

إن دراسة الحضريات والاكتشافات الجغرافية والفلك والملاحة

---

[٣٧] *سقوط العلمانية*, أنوار الجندي, ص ٤٦.

[٣٨] *المعرفة في الإسلام بين الأصالة والمعاصرة*: أحمد عبد الرحمن سايح, الطبعة الأولى, دار الطباعة المحمدية, ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م, ص٧.

[٣٩] *البحث عن اليقين*, جون دوي: ترجمة وتقدم: أحمد فؤاد الأهواني, الناشر دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاه القاهرة، ١٩٦٠م ص ٧٦.

وغيرها, وما حدث أمام أعين الأوروبيين من الوقائع والتحديات للعقل المستقصى, كلها تؤثر على بعض المفكرين الأوروبيين وتجعلهم يناضلون في سبيل تحرير العقل البشري.[٤٠] فتطورت الأفكار وتوسعت العقول في سائر مجالات الحياة, ووصل العلمانيون إلى نبذ "الغيبيات" من كل ما يسمى بالبحث العلمي, ويعتبرون أن العلم كاف كل الكفاية لتفسير جميع الأسرار, بل يقطعون أن التمسك بالغيبيات بما فيها الدين يجمد تطور العلم. ولأجل تقدم العلم يلزم خلع الدين والانسلاخ منه, وهذه النزعة العلمانية ظاهرة تماما في مثل الأقوال التالية:

منها ما قاله أندروديكسن وايت: "إن القوي الرجعية والدين يعملان مجتمعين على تجميد مسيرة العلم ويوفقان تطوره."[٤١] يعني أن كل قواعد البحث العلمي والأفكار العلمية يجب أن تصدر عن عقل الإنسان, وأن تكون العقيدة وجميع النشاطات الروحية مقصورة على نطاقها الفردي الخاص دون أن تكون لها أية علاقة بالبحث العلمي.

وهكذا, فإن كثيرا من الباحثين الغربيين العلمانيين والذين درسوا ظواهر العلم رفضوا رفضا باتا تدخل الدين في أبحاثهم العلمية. ومن هؤلاء "رينان" الفيلسوف الفرنسي الذي يرى: " أن العلم يجعل

---

[٤٠] أنظر: *معالم تاريخ الإنسانية*، ١/١٧.

[٤١] *ظاهرة العلم الحديث*: عبد الله المعمر, من سلسلة عالم المعرفة, العدد ٦٩ يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب, الكويت, ذو القعدة – ذو الحجة ١٤٠٣هـ, ص ١٥.

الناس سعداء سعادة كاملة في حياتهم. وأن العلم هـــو" الديـــن الحـــق". وأن الأديان كلها قد انحلت إلى نفاق خـــالص."[٤٢]

ومنها ما قاله شال رنو فيه: "والنظام الـــذي وضعـــه الخلـــق لا بـــد وأن يقع, وليس لله أن يتدخـــل فى القوانـــين الـــتي وضعـــها."[٤٣] وهـــذا أن التغييرات الحضرية المختلفة كانت ظاهرة عـــن ظواهـــر قـــدرة الإنســـان – أي عقله – فهي لا يحتاج إلى الخـــالق أو الإلـــه وهـــذه النزعـــة الإنســـانية جعلت أرنست كاسيرر يعتمد الرأي القائل: "بـــأن واحـــدا مـــن التفاســـير التي تطرح حول ظاهرة العلم الحديـــث وتطـــوره في عصـــر النهضـــة هـــو الإيمان بقوة الإنسان الخلاقة واستقلالها."[٤٤] أي استقلالها مـــن كـــل قيـــود دينية في كل مجالاتها العلميـــة.

وأن العالم الطبيعـــي هكســـلى يـــرى أن البحـــث العلمـــي يكفـــي باستعمال الحواس والآلات المطلوبة فيها, ولا يحتـــاج إلى تدخـــل أي عـــامل ديني كـــالوحي أو الكتـــاب المقـــدس, فيقـــول: "يطلـــب العلـــم حقـــائق الكائنات الطبيعية بواسطة الحواس مع استعانة بجميع ما عـــرف مـــن أنـــواع الآلات."[٤٥] وعلى هذا وجدت المعرفة أو العلم عنـــده عـــن هـــذا الطريـــق

---

[٤٢] *الفلسفة المعاصرة في فرنسا*: ج. بنروبى, ترجمة عبـــد الرحمـــن بـــدوي ومراجعـــة محمد ثابت الفندي, الطبع والنشر مكتبة الأنجلـــو المصريـــة, مطبعـــة المعرفـــة, ١٩٦٣م, ص ٢٧٢.

[٤٣] *المرجع نفســـه*, ص ٢٧٢.

[٤٤] *ظاهرة العلم الحديـــث*, ص ٢٤.

[٤٥] *المعرفة في الإســـلام*, ص ٦.

فقط, لا غيرها. ويرى مثله بلفور حيث يقول: "إن العلم يتوقف في تحصيله والتثبت منه على المقاييس, فكل ما لا يقبل القياس من الأشياء فهو خارج أو يكاد/يكون خارجا عن حدود الطبيعة."[٤٦]

أن العلمانيين يحسبون أنهم يستطيعون أن يعرفوا كل شيء عن طريق البحث العلمي, دون أن يشعروا أن البحث العلمي مقصور على المحسوسات فقط دون المغيبات, وأن هناك أشياء غيبية لا يعطي حقيقتها إلا الدين.

إن الأمور الغيبية تجعل المفكرين العلمانيين واقعين في الشكوك وخاصة في هذا القرن كما صورها عباس محمود العقاد بقوله : "فاليوم – في القرن العشرين – أين تسير الحضارة الغربية بين هذه الشكوك التي بدأت بالشك في الدين ثم مضت أشواطا بعد أشواط تارة مع العقل وتارة مع الغلم الحديث..."[٤٧] وكاد العلماء أن يتوقفوا على أن التفسير والتعليل فوق طاقة العلم ولا سيما تفسير الغايات والأصول."[٤٨] إن الغايات والأصول مسائل غيبية لا قدرة للعقل البشري أن يدركها تمام الإدراك.

وبعد أن وصل العلمانيون إلى تاليه العلم رفضوا كل صور دينية

---

[٤٦] *المراجع نفسه*, ص ٧.

[٤٧] *عقائد المفكرين في القرن العشرين*, عباس محمود العقاد, الطبعة الثانية, دار الكتاب العربي, بيروت, ١٩٦٩, ص ٣٤.

[٤٨] *المرجع نفسه*, ص ٣٥.

أو ما له علاقة بالدين. يقول جيمس فتز جيمس ستيفن: "إذا كانت الحياة الإنسانية في نشأتها قد استوفى العلم وصفها فلست أرى بعد ذلك مادة باقية للدين, إذ ما هي فائدته, وما هي الحاجة إليه؟ إننا نستطيع أن نسلك سبيلنا بعيره, وإن الدنيا في نظري لموطن مستطاب جدا لو أنه يدوم, وفيها ملؤها من الناس الظرفاء والأشياء العجيبة ... وسيبقى الحب و الإخاء والطموح والمعرفة والأدب والفن وأمور السياسة والتجارة والحرف وألوف غيرها سارية في سراها كما كانت من قبل دون حاجة إلى الله أو حياة مقبلة."[٤٩] فجزم العلمانيون بأن العقل هو المرشد الوحيد للناس في حياتهم العلمية. يقول برتراند رسل: "إن العلم يشكل المصدر الوحيد لمعرفتنا, لا يمكن أن يقع مجالا للاعتقاد في وجود الله وخلود النفس, بل أنه يعتبر نظرية بالغة البطلان والاستحالة."[٥٠] كما صرح أندروديكسن وايت بقوله: " إنه متى تم القضاء على التعصب الأعمى للدين والتمسك بالخرافات, فإن مسيرة العلم لا محالة سائرة في طريقها الصحيح."[٥١]

إن الأفكار العلمية البحثية حملت العلمانيين إلى الإلحاد ورفض الدين وإنكار الأمور الأخروية.

---

[٤٩] *المرجع نفسه*, ص ٣٤.

[٥٠] *تاريخ الفلسفة المعاصرة في أوروبا*, ص ١٠٢.

[٥١] *ظاهرة العلم الحديث*, ص ١٧, *وراجع الفلسفة الإنجليزية في مائة عام*, رودلف متن, ترجمة فؤاد زكريا, مطبعة الرسالة, القاهرة, ١٩٦٣ م, ص ٥٢.

ثالثا: التمسك بفكرة التطور المطلق

كانت بداية انطلاق فكرة التطور هي نظرية داروين, ومع أن أناسا قبله أثاروا إلى التطور مثل أوجست كومت في نظرية تطور العقل من الخرافات إلى الدين الوضيعة. وهوبز بفكرة تطور المجتمع من الحالة الوحشية إلى الحالة الاجتماعية,[٥٢] فإن فكرة التطور العضوي التي أعلنها داروين في كتابه (أصل الأنواع) جعلت أوروبا تعتقد بالتطور المطلق.[٥٣]

إن هذه الفكرة تقول: "إن المدة تظل في تطور أبدي, وبفضل هذا التطور تنشأ موجودات أكثر فأكثر تعقيدا ذرات دقيقة خلايا حية, نباتات, بشر ومجتمعات. والتطور لا ينظر إليه باعتباره نمطا دائريا, وإنما كنمط خطي وبحسب نظرية تفاؤلية, فالأخير هو على الدوام الأكثر تعقيدا يمتزج مع الأحسن والأكثر سموا."[٥٤] وإذا كانت الحياة تتطور كما قال داروين لم يقل صراحة ومن وافقه, فما الذي يمكن أن يكون ثابتا على وجه الأرض على الإطلاق؟ ولو أن داروين لم يقل صراحة إنه لا شيء ثابت على الإطلاق. ولكن نظريته تجر المفكرين العلمانيين الماديين إلى تلك الفكرة الحتمية.[٥٥]

---

[٥٢] انظر *سان سيمون*, ص ٧١, ومعالم تاريخ الإنسانية, ١/١٢٣, وعقائد المفكرين, ص ١٤.

[٥٣] راجع *التطور الثبات*, ص ١٩ وما بعدها.

[٥٤] *تاريخ الفلسفة المعاصرة في أوروبا*, ص ١٢٣.

[٥٥] *انظر عقائد المفكرين*, ص ٧٢, والعلمانية, ص ٢٠١.

ثم صارت الفكرة أكثر تطرفا حيث تـــرى: إن كـــل ارتقـــاء غـــير هادف, وتتراكم مكوناته تحت ضغـــط عـــامل ســـيبي في إطـــار صدمـــات وصراعات. فالعالم في الحقيقة ليس له مـــن هـــدف. إنـــه يتطـــور بطريقـــة عمياء..."[٥٦] فهذه النظرية تؤدي إلى إخضـــاع مـــن هـــذا بطبيعـــة الحـــال إنكار القول بثبات الأشياء أو بأزلية العلـــل الأولى أو الخـــالق ويحـــل محلـــه الإيمان بالطبيعة فحســـب!

وإذا كان التطور كنمط خطي بحســـب النظريـــة التفاؤليـــة, يجعـــل الأخير وهو على الدوام الأكثر تعقيدا يمتزج مع الأحســـن والأكـــثر ســـموا, فقد جعل العلمانيون هذه النظرية قانونا عاما يعـــني: "اعتبـــار كـــل تطـــور جديد أفضل من التطور الذي ســـبقه علـــى الإطـــلاق."[٥٧] حـــتى الديـــن أو الفكر الإلهي أو الحقيقة, لا بد أن تتطور لتكـــون صحيحـــة ومفيـــدة كمـــا صرح بذلك شلر حيث يقول: " إن القضية كـــي تكـــون صادقـــة لا بـــد وأن تكون مفيدة. وهي بهذا المعنى تعتبر قيمة. وإذن, فـــإن الحقيقـــة ليســـت شيئا ثابتا, بل إنها شيء ديناميكي في صـــيرورة مســـتمرة."[٥٨]

وهكذا أخذ العلمانيون فكرة التطـــور المطلـــق وطبقوهـــا في كـــل مجالات الحياة وجعلوها من سمة الحضارة المعـــاصرة. فكـــل شـــيء عندهـــم

---

[٥٦] *الفكر الإسلامي في مواجهة الأفكـــار الغربيـــة*, محمـــد المبـــارك, الطبعـــة الأولى, دار الفكر, بيروت, ١٣٨٧ هـــ, ص ٥٥.

[٥٧] *تاريخ الفلسفة المعـــاصرة في أوروبـــا*, ص ١٩١.

[٥٨] *المصدر نفسه*.

يمكن أن يتطور: المجتمع, الأخلاق, العقل, السياسة, وغيرها. والدين أيضا. وقد عبر محمد قطب عن العواقب الهدامة التي تنجم من هذه النزعة التطورية بقوله:

"إنه ليست الأحياء وحدها هي التي تطورت أو تتطور..., أنه كل شيء في هذه الحياة. حتى الأفكار والمجتمعات تتطور..., إنها ليست ثابتة, كما كانت تبدو من قبل. والدين؟ يا للعجب! إنه هو الأخر يتطور! من كان يتصور؟ إن فكرة الله تطورت في تفكير البشرية ... كانت عبادة للوالد, وعبادة للطوطم, عبادة لقوي الطبيعة المختلفة, عبادة للأوثان, ثم صارت عبادة الله. ولكنها يمكن أن تتطور و يمكن أن تكون عبادة لأس شيء أخر... ما ذا لو أصبحت عبادة للطبيعة ... فلنعبدها! إله يمنحنا الحرية لأننا سنعيش في ظله أحرارا من كل قيد... طلقاء... نفعل ما يحلو لنا, لأنه لا يحاسبنا ولا يزجر أفعالنا... فأي فرصة لنا في هذا الدين الجديد؟!"[٥٩]

رابعا: تمجيد القوة المادية واستبعاد أي حقيقة خارج عالم الظواهر

وبعد أن كشف العلماء الطبيعيون قوانين المادة, زعموا أنه بإمكانهم تفسير كل شيء بها حتى "الحياة". فتضاعف اهتمامهم بها وجزموا: "أن المادة حقيقة الحقائق الثابتة التي لا يعتبرها الشك ولا يلم بها الباطل, لأنها محسوسة ملموسة محصورة في مكان محدود, يخبط

[٥٩] *التطور والثبات*, ص ٢١.

أحدهم على المائدة بيده, أو يضرب على الأرض بقدمه ويقول لمن يجادله, هذه هي الحقيقة الذي ألمس بيدي وقدمي, وأسمعها بأذني."[٦٠] كانت النزعة المادية مما حدا بالعلمانيين إلى التمادي في إنكار الغيب.

المادة هي كل شيء. وإن العالم المادي هو العالم الحقيقي. وإن الأنواع تولدت من بعضها عن طريق غير إرادية وأنه لا يوجد شيء حقيقي إلا المادة.ليست هناك قوة إلا قوة المادة. وإنه لا يوجد في الكون شيء إلا وهو محكوم بقوانين المادة وواقع في إطار الزمان والمكان والحس البشري ما عدا ذلك وهم محض.[٦١] فأنكروا وجود غير المادي وحصروا الوجود في العالم المادي فقط!

رفض العلمانيون الماديون قول وجود ما وراء الطبيعة. فأنكروا وجود الروح وكل ما لا تدركه الحواس. وفسروا الأشياء تفسيرا ماديا, كما هو ظاهر في كل لينين: "فالمادة هي على الدوام المعطي الأول. أما ما يسمى بالشعور أو النفس فهو المعطي الثاني, وبالتالي فإن الشعور ليس هو الذي يحرك المادة, بل المادة هي التي تحرك الشعور."[٦٢] يعني أن المادة هي المبدأ الأول, وهي الوجود كله, وأن مظاهر الوجود على اختلافها ليست إلا نتيجة للقوة الكامنة في تلك المادة.

---

[٦٠] *عقائد المفكرين في القرن العشرين*, ص ٥٥.

[٦١] انظر *الدوافع نحو المادية*, مرتضى مطهري, الطبعة الثانية, دار التبليغ الإسلامي, دار التعارف, بيروت, ١٤٠٠ هـ/ ص ١٥- ١٦.

[٦٢] *تاريخ الفلسفة المعاصرة في أوروبا*, ص ١٢٥.

وبعد أن اكتشف العلماء العلمـــانيون أن المـــادة قـــوة, انشـــغلوا في دراستها دراسة بحتة. وأدخلوا كل شـــيء تحـــت معمـــل العلـــم التجريـــبي, فقالوا:" لم يكن هناك حائل يحول دون الوصـــول إلى كثـــير مـــن النظريـــات العلمية الحديثة لولا أن الناس والمفكرين ظلوا يتشبثون بما ألغـــوا أخـــذة مـــن السابقين أو ظلوا أسرى الدين وتعاليمه."[٦٣] اتجـــهوا نحـــو المادية المحضـــة واكتفوا بها وأعجبوا بكل مـــا فيـــها مـــن أســـرار, وبـــالغوا في التقديـــر والتقويم, فقالوا أن الطبيعة مصدر للمعرفة اليقينية أو المعرفـــة الحقـــة. ومـــن أثارها جزموا "أن الطبيعة هي التي تنقص الحقيقة في عقـــل الإنســـان, وهـــي التي توحي بها وترسم معالمها الواضحة. هي التي تكـــون عقـــل الإنســـان – لهذا – لا يملى عليه من خارج الطبيعة, أي لا يملى عليـــه مـــن وراءهـــا...., إذ ما يأتي من وراء الطبيعة خداعا للحقيقـــة"[٦٤], بدلـــوا الإلـــه المعـــروف في الأديان بالطبيعة ونسبوا إليها كلما للإله الحقيقـــي مـــن الحقـــوق, ونبـــذوا الدين كله. وطبقا لهذه الفكرة فهناك مـــن اعتنـــق فكـــرة وحـــدة الوجـــود حيث نفســـه.[٦٥]

وإن كان المعقول هو الطبيعة, فمن حـــق كـــل النـــاس أن يعرفـــوا كل شيء و يحللوا كل شيء بتفســـير مـــادي محـــض, لأن المـــادة خادعـــة

---

[٦٣] *ظاهرة العلم الحديـــث*, ص ١٥.

[٦٤] *الفكر الإسلامي الحديث*, البـــهي, ص ٣٤٣.

[٦٥] *تاريخ الفلسفة المعـــاصرة في أوروبـــا*, ص ١٢٤.

لقوانين حتمية فيمكن إدخالها في دائرة البحث,[٦٦] ومن أصحاب هذه النظرية هنري برجسون الذي فسر الحياة بما يلي:

"والحياة في مجموعها ليست أمرا مجردا, ففي لحظة ما من لحظاتها, وفي مكان ما يولد تيار حيوي يرتقي صاعدا من سبب موجب إلى أخر بفضل موجودات أكثر ترقيا,ويحاول التيار الحيوي أن يتغلب على العراقيل التي تصنعها المادة في طريقه. ومادة الجهاز العضوي هي التي تجسد مجموعة العراقيل التي تنجم عن الحياة. والحياة لا تنبثق بشكل منطقي, فهي عاجزة عن اقتناص مناسبتها. ولذا فإنها إما أن تقع في طريق مسدود أن تعود إلى الوراء. وبالرغم من ذلك فإن الدافع الحيوي الكلي يمضي في طريقه. وتشعب النشاط الحيوي إلى تيارات مختلفة إلى تحقيق التفتح والانطلاق, فهناك أول التشعب إلى ما هو نباتي إلى ما هو حيواني, ذلك أن النباتات تدخر الطاقة مباشرة من أجل إن تستهلكها الحيوانات وتتصرف فيها هذه باعتبارها مادة تستهلك لتحقيق فعل حر, فالنباتات تظل مرتبطة بالأرض و يظل الوعي فيها كامنا خامدا ولا يستيقظ إلا عبر عالم الحيوان."[٦٧]

إن هذه الفكرة الإلحادية تميل إلى الاعتقاد بأن الكون ليس إلا آلة كبيرة, وإن الإنسان جزء منها, وهو يخضع لقوانين الطبيعة, كما عبر عن ذلك برتراند رسل في قوله "إن البشرية وليدة عوامل لم توجد وفق

---

[٦٦] *المصدر نفسه*, ص ١٢٢.

[٦٧] *تاريخ الفلسفة المعاصرة في أوروبا*, ص ٢٣.

تدبير سابق, أو غاية مقصودة. فأصل الإنسان هو النمو والتطور وحتى عواطفه مثل الأمر والخوف والحب, والعقيدة فإنها ليست إلا مظهرا من مظاهر التلاقي العشوائي للذرات المختلفة."[٦٨] رفض برتراند رسل فكرة أن هناك مدبرا ذا إرادة. فالطبيعة عنده كل شيء. فالإنسان إذا أراد أن يحيى حياة سعيدة فعليه أن ينسق سلوكه في انسجام تام مع قوانين الطبيعة.

ومن هذا المنطق أقام العلمانيون منهج الحياة, وكل ما يتصل بالإنسان. فأسس كارل ماركس نظرية ماركسية على الاقتصاد والإنتاج, وخاصة العلاقات القائلة في المجتمع حيث يقول: "في الإنتاج الاجتماعي الذي يزاوله الناس تراهم يقيمون علاقات محدودة لا غنى عنها. وهي مستقلة عن إرادتهم. وعلاقة الإنتاج تطابق مرحلة محدودة من تطور قواهم المادية في الإنتاج. والمجموع الكلي لهذه العلاقات يؤلف البناء الاقتصادي للمجتمع. وهو الأساس الحقيقي الذي تقوم عليه النظم القانون والسياسة, والتي تطابقها أشكال محدودة من الوعي الاجتماعي. فأسلوب الإنتاج في الحياة المادية هو الذي يعين الصفة العامة للعلميات الاجتماعية والسياسة والمعنوية في الحياة."[٦٩]

ونرى هذه النزعة المادية أكثر وضوحا حين بين ماركس رأيه في

---

[٦٨] *الدوافع نحو المادية*, ص ٢٣.

[٦٩] *الإنسان بين المادية والإسلام*, محمد قطب, الطبعة الخامسة, دار الشروق, بيروت, ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م, ص ٥٧.

الإنسان حيث يقول: إن الإنسان ما زال محاربا منذ أمل أمره لأعراضه ومصالحه الشخصية, وأنه ما انقسم إلى مختلف الشعوب والقبائل والطبقات إلا لأجل ما كان في نفسه من أثره وحبه لذاته, وما نشب من هذه الطبقات والشعوب المختلفة من الحروب والمنازعات إلا لهذه الأثرية الذاتية, وما رزق من نمو وارتقاء إلا بفضل هذه المصارعات الطبقية والأغراض المرتبة على الأثرة وحب الإنسان لذاته."[٧٠] يعني أن الإنسان غي صراع دائم لأجل المادة.

وتابع فردريك أنجلز فكر ماركس الاقتصادي الذي يعني أن الاقتصاد هو السبب في كل التحولات أو التغيرات في المجتمع حيث يقول: إن الإنتاج وما يصحبه من تبادل المنتجات هو الأساس الذي يقوم عليه نظام اجتماعي. فبمقتضى هذه النظرية نجد أن الأسباب النهائية لكافة التغيرات والتحولات الأساسية يجب البحث عنها لا في عقول الناس أو في سعيهم وراء الحق والعجل الأزليين وإنما في التغيرات التي تطرأ على أسلوب الإنتاج والتبادل. وإذن فعلينا أن نبحث عن هذه الأسباب في اقتصاديات العصر الذي نعنيه."[٧١]

ويتضح لنا أن العلمانيين الماديين أن الاقتصاد لا يصدر من إرادة الإنسان, ولكنه ناتج من سنة التطور التي خلقتها الطبيعة مع ما فيها من القوانين التي تؤثر في الإنسان.

---

[٧٠] *واقع المسلمين*, المودودي, ص ٣١.

[٧١] ذكره محمد قطب *في الإنسان بين المادية والإسلام*, ص ٥٨

وهذا المفهوم المادي عاجز عن الفصل بين الطبيعة والإنسان. وعلى هذا المفهوم أسس العلمانيون أفكارهم حول (الإنسان) أي أنه مادة. فلا شيء إذا درس الإنسان كما يدرس غيره من الأشياء ويقولون: "نحن ندرس الإنسان ونحلله كما ندرس أي شيء أخر. نقول أن الإنسان كائن مادي كيماوي. ومن حيث أنه جزء من النظام المادي للطبيعة, فهو يجب أن يخضع للقوانين الطبيعية والكيماوية مثل الكائنات الأخرى."[٧٢]

ولو قلنا لهؤلاء إن لدى إنسان ما يسمى (الفكر) أو الشعور. وهما معلومان عند الجميع وليسا ماديين, لأجابوا: " إنهما تناج الدماغ البشري. وإن الإنسان نفسه نتاج الطبيعة وإن الدماغ ليس إلا مادة دقيقة التركيب وهو جزء من الجسم."[٧٣]

وهذا التفكير المادي للإنسان اتسع مداه فيما بعد في أبحاث العلمانيين, كما ظهر ذلك في أراءهم حول المجتمع والدولة أو غيرها. فقد رأى أميل دوركايم وليفي بريل وغيرهما: "إن جميع القوانين الأخلاقية والمنطقية هي قوانين نسبية لا تعدو أن تكون أنعكاسا لضرورات مجتمع ما عبر تطوره, وبأن الدين ما هو إلا تعبير عن عبادة الأفراد لذلك المجتمع المتطور . ولقد تمثلت خلاصة مذاهبهم في ضرب من ضروب علم النفس التأملي القائل بأن كل ما يمت بصلة إلى الدين

---

[٧٢] *سقوط العلمانية*, ص ٥٠.

[٧٣] *الإنسان بين المادية والإسلام*, ص ٦٠.

أو المنطق أو الأخلاق يعد داخلا في النطـــاق الاجتمـــاعي."[٧٤]

وفيما يتعلق بالدولة نرى هوبز يقـــول: "كـــان النـــاس في حالتـــهم الفطريـــة الأولى لا يذوقـــون للســـلم طمعـــا, ولا ينفكـــون يتنـــــازعون ويتقاتلون, وينظر كل فرد إلى الأخر نظرة ملؤها الخـــوف والشـــك, فلـــم يجدوا بدا من التعاهد والتعاقد, فاتفق الجميع على أن يتنـــــازل كـــل إنســـان عن جزء من حريته المطلقة, فتصبح مقيدة بصـــالح المجمـــوع, وأن يحـــد مـــن مطالبه, فلا يحاول أن يظفر بكل ما يشتهي, هذا التعاقد بـــين الأفـــراد هـــو أسس الإجماع والقاعدة التي تقوم عليها الدولـــة, ولكـــن هـــذه التعـــاقد لا يمكن تنفيذه وتحقيقه إلا إذا خضع الجميـــع لفـــرد واحـــد منـــهم تتمثـــل في شخصه الدولة كلها, وتكون إرادته هي القـــانون النـــافذ وليـــس الصـــواب والخطأ والخير والشـــر والفصيلـــة والرذيلـــة إلا مـــا تريـــده هـــذه القـــوة الحاكمة, ويستحيل أن يســـرد النظـــام في جماعـــة, وأن يطـــرد لهـــا تقـــدم ورقي, إلا إذا وقر في نفـــوس الجميـــع أنهـــم يفيـــدون خـــيرا باحترامـــهم لرئيسهم الأعلى وخضوعهم لـــه."[٧٥]

إن الدولة هي كل شيء , تحرر الناس أو تقيدهـــم, وليـــس لأحـــد حق في إظهار الخير حتى الدين نفسه. فإن أمور الدنيـــا وشـــئونها ومعاملاتهـــا كلها في يد الدولة ويرجع إليها. فهي التي تسيرها حســـب مشـــيئتها, وهـــي التي تصنع المبـــادئ والقوانـــين والنظريـــات والمفـــاهيم والمنـــاهج ... الخ.

---

[٧٤] *تاريخ الفلسفة المعاصرة في أوروبـــا*, ص ٦٠.

[٧٥] *قصة الفلسفة الحديثـــة*, ص ٦٣.

فوضع هوبز الدولة في مقام الإله الحقيقي من السيطرة والتعظيم والتقديس .

رفض العلمانيون الماديون كل أنواع غيبيات. وهذا الرفض جعلهم يؤلهون المادة. ولا ريب أن هذه الفكرة تتعارض تماما مع مفهوم الدين الحق.

فهرس المراجع

أبو الأعلى المودودي, *واقع المسلمين وسبيل النهوض بهم*، بقلم إلى العربية محمد عاصم الحداد ،الطبعة والسنة غير موجودة

أحمد عبد الرحمن سايح, *المعرفة في الإسلام بين الأصالة والمعاصرة*، الطبعة الأولى, دار الطباعة المحمدية, ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م

أحمد محمد العسال، *الإسلام وبناء المجتمع*, الطبعة الأولى, دار القلم الكويت, ١٣٥٨هـ/١٩٨٥م

أنوار الجندي, *سقوط العلمانية*، الطبعة الأولى, دار الكتاب اللبناني, بيروت ١٣٩٣هـ ـ ١٩٧٣م

احمد أمين وزكي نجيب محمود, *قصة الفلسفة الحديثة*، (الجزء الأول), الطبعة الخامسة, مطبعة لجبة التأليف والترجمة والنشر, القاهرة, ١٩٨٦م

بوجينيسكى, *تاريخ الفلسفة المعاصرة في أوروبا*، نقله إلى العربية محمد عبد الكريم الوافي, الطبعة الأولى, مؤسسة الفرجاني, طرابلس, ليبيا (بدون سنة)

ج. بنروبى, *الفلسفة المعاصرة في فرنسا*، ترجمة عبد الرحمن بدوي ومراجعة محمد ثابت الفندي, الطبع والنشر مكتبة الأنجلو المصرية, مطبعة المعرفة, ١٩٦٣م

جون دوي، *البحث عن اليقين*، ترجمة وتقدم: أحمد فؤاد الأهواني، الناشر دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبي وشركاه القاهرة، ١٩٦٠م

زكريا إبراهيم، *دراسات في الفلسفة المعاصرة*، الطبعة الأولى، مطبعة دار مصر للطباعة القاهرة،١٩٨٦م

سفر عبد الرحمن الحوالي ، *العلمانية* ،الطبعة الأولى، دار مكة للطباعة والنشر التوزيع، مكة المكرمة، ١٤٥٢هـ ـ ١٩٨٢م

طلعت عيسى، *سان سيمون*، دار المعارف القاهرة، ١٩٨٥م

عباس محمود العقاد، *عقائد المفكرين في القرن العشرين*، الطبعة الثانية، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٦٩

عبد الله المعمر، *ظاهرة العلم الحديث*، *من سلسلة عالم المعرفة*، العدد ٦٩ يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ذو القعدة – ذو الحجة ١٤٠٣هـ

كرين برنتون، *نشأة الفكر الحديث*، ترجمة عبد الرحمن مراد، مطبعة المفيد الجديد، دمشق، بدون سنة

محمد أسد، *منهاج الإسلام في الكم*، نقلة إلى العربية مصور محمد ماضي، الطبعة الثالثة، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٦٧م

محمد البهي، *العلمانية الإسلام*، دار الطبعة المحمدية، القاهرة (بدون سنة)

محمد المبارك، *الفكر الإسلامي في مواجهة الأفكار الغربية*، الطبعة الأولى، دار الفكر، بيروت، ١٣٨٧ هـ

محمد عبد المنعم خفاجي, *الإسلام والحضارة الإنسانية*، الطبعة الأولى, دار الكتاب اللبناني, بيروت, ١٣٩٣/١٩٧٣

محمد قطب, *الإنسان بين المادية والإسلام*, الطبعة الخامسة, دار الشروق, بيروت, ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م, ص ٥٧.

محمد قطب, *مذاهب فكرية معاصرة*، الطبعة الأولى, دار الشروق, بيروت, ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م

مرتضى مطهري, *انظر الدوافع نحو المادية*, الطبعة الثانية, دار التبليغ الإسلامي, دار التعارف, بيروت, ١٤٠٠ هـ

هـ. ج. ولز , *معالم تاريخ الإنسانية*، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد, الطبعة الثالثة, مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر, القاهرة, ١٩٦٧م, المجلد الأول.

Encyclopedia Britanica, Vol. IX.

Hassan S. Karim, *Almanar English – Arabic Dictionary*, New Impression Librairie, du Liban, Beirut, 1981.

M. Rasyidi, *Koreksi terhadap Drs. Nurcholish Madjid, tentang Sekularisasi*, Cetakan kedua, Bulan Bintang, Jakarta, 1977.

(محمد راشدي, تصحيح على نور خلص ماجد حول العلمانية, الطبعة الثانية, بولان بنتاج, جاكرتا, ١٩٧٧م)

Muhammad Naqib al-Attas, *Islam dan Sekularisasi*, terj. Karsijo Joyosuwarno, cet. I, Pustaka, Bandung, 1981

(محمدنقيب العطاس, *الإسلام والعلمانية*، ترجمة كارسيجو بويوسوارنو, الطبعة الأولى, مطبعة فوستكا, بندونج. ١٩٨٠ م)

Panji Masyarakat, No. 416, 1983

The Oxford English Dictionary, Vol. IX, 1970.

Webster's Third, New International Dictionary, vol. III, Merriam, co. 1976.

Webster's Colligiate Thesaurun, First Edition, Merriam Company, USA, 1976.

*مسلم ناسوتيون هو مدرس بالجامعة الاسلامية شريف هداية الله بجاكرتا